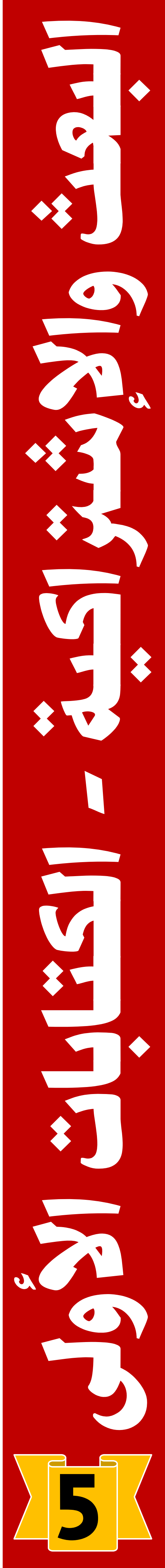
الدكتور إلياس فرح

تطور الحركة الإشتراكية في الوطن العربي



منشورات 1989 الطليعة





تطور الحركة الاشتراكية في الوطن العربي

لالياس فرح

الاتجاهات الرئيسية للحركات السياسية في الوطن العربي

عرفت بلاد العرب منذ مطلع هذا القرن حركات فكرية وجمعيات سياسية كان عدد كبير من مؤسسيها من المسيحيين العرب ، غير ان التنبه القومي الذي كان ثمرة لنشاط هذه الحركات بقي في حدود التنبه ولم يتح له ان ينقلب الى وعي قومي الا بعد تجربة قاسية حملت معها آلاماً وتضحيات كثيرة .

بدأت هذه التجربة مع ثورة الحسين التي كشفت للعرب منطق الاستعمار الغربي واساليبه فكان جواب العرب على

الاحتلال سلسلة من الثورات في مصر وسوريا والعراق والمغرب واطراف الجزيرة العربية . وقد أثمرت هذه الثورات تحرراً في بعض الاقطار العربية . كما أثمر تلاقي الفكر العربي مع الحضارة الغربية وعياً للتيارات الفكرية التي تسود العالم الحديث . كما كانت للحرب العالمية الثانية آثار كبيرة في نمو الوعي القومي وفي ربط القضية العربية بالصراع الدولي . الا أن تجربة العرب الجديدة لم تبدأ الا بعد مأساة فلسطين التي كشفت للعرب عن جميع التناقضات التي يقوم عليها مجتمعهم . وعندئذ كان لا بد من ظهور حركات سياسية جدية تكون في مستوى المشكلة ، فكانت ثورة مصر والانقلابات في سوريا وثورة الجزائر تعبيراً عن روح الانتفاضة الحاسمة التي بدأت تظهر في الأفق العربي وتطرح القضية العربية على أساس ثوري حاسم . ولم تعد مشكلة الاستعمار والصهيونية والحكم الرجعي هي ما يشغل فكر العاملين في الحقل السياسي وحدها ، بل ان القضية الاجتماعية والنظام الاقتصادي ومستقبل المجتمع العربي كلها أصبحت قضايا مطروحة . فكان لا بد للحركات السياسية ان تنتقل من الصعيد السلبي الى المستوى الايجابي . وان تحدد موقفها من هذه القضايا . لذلك انقسمت الحركات السياسية في الوطن العربي الى اتجاهات رئيسية ثلاثة : حركات رجعية — حركات شيوعية — حركات اشتراكية .

هذا بالنسبة للحركات التي قامت على أساس عقائدي . أما بالنسبة للحركات التي قامت على مناهج انتخابيـــة وتكتلات شخصية ، فعلى الرغم من انها كانت تفتقد الهوية العقائدية الا انها كانت تستعير بعض الشعارات كما انهـــا كانت تحمي بعض الحركات العقائدية وتعتمد عليها فـي تحقيق أغراضها كما كان يعتمد حزب الشعب في سوريـــا على حركة الاخوان المسلمين .

ولكي نفهم الحركة الاشتراكية في البلاد العربية . لا بد ان نرسم الخطوط الاولية لكيان الاتجاهات التي أشرنا اليها وان نحدد نظرتها واهدافها ووسائلها وموقفها من القضية العربية .

مشكلة المجتمع العربي

الشيوعيون يعتبرون مشكلة الاستعمار أي مشكلة المعسكر الرأسمالي الذي يمتد سلطانه على بقاع كثيرة من العالم ، ومن بينها البلاد العربية ، بالاضافة الى مشكلة النظام الاقطاعي والرأسمالي الذي يقسم المجتمع الى طبقات متنازعة ، هما مشكلة المجتمع العربي . أما « الهدف » فهو في رأي الشيوعيين الاعتماد على الايديولوجيا الماركسية التي تفسر التاريخ تفسيراً مادياً صرفاً ، والسعي لتحقيق الاشتراكيـة العلمية كما يصفونها وربط مصير العرب بمصير المعسكر الشيوعي الذي يمثل في رأيهم ، معسكر السلام والحريـة

والديمقراطية . أما الوسيلة فهي تكوين الجمعيات والنوادي واصدار المجلات والصحف الموالية الى جانب الحزب الشيوعي الذي يقود الطبقة العاملة في الطريق الذي رسمه لها التاريخ « ثورة البروليتاريا » — كما يعتقدون .

أما الرجعيون فيعتبرون مشكلة المجتمع العربي هي في ابتعاد حياة العرب اليوم عن تعاليم الاسلام والنظام الاجتماعي الذي جاء به . فهم يكتفون بالماضي ويحاولون عزل المجتمع العربي عن الحضارة الحديثة . ان صورة المستقبل التي نرسمها لمجتمعنا المقبل لا تحتاج في نظر الرجعيين ، سوى ان نلتفت الى الخلف فنرى كل شيء جاهزاً . ان الحلول الحديثة التي اعتمدت على التقدم العلمي هي في رأيهم حلول بشرية ، أما الحلول التي جاءت في الاسلام فهي حلول إلهية ، كاملة ، نهائية ، صالحة لكل زمان ومكان لكل أمة وكل عصر، لذلك يدعو الرجعيون الى العودة الى الانظمة التي طبقت في الماضي ووسيلتهم الى ذلك الجمعيات الدينية ومنظمات الاخوان المسلمين والحركات السياسية التي تستغل الدين .

أما الاشتراكيون فهم يرون ان مشكلة المجتمع العربي هي في التناقض بين امكانيات هذا المجتمع الغنية وبين واقعه الفقير . وفي تخلف هذا المجتمع عن روح العصر وفي الحاجة الى اعادة النظر في تكوين هذا المجتمع وتنظيمه على أسس علمية حديثة . لذلك فهم يأخذون على الرجعيين انغلاقهم وتحجرهم وتمسكهم بالاشكال لا بجوهر الماضي ،

كما أنهم يأخذون على الشيوعيين فلسفتهم المادية ونظرتهم الأممية ، ويعتبرون الفلسفة الماركسية رد فعل سلبي على تناقضات المجتمع الاوروبي في القرن التاسع عشر ، لاتصلح حلاً ايجابياً لمشكلة المجتمع العربي لانها في فكرتها وأسلوبها غريبة عن طبيعته ، ولانها تنظر الى المجتمعات والافراد نظرة كمية متجانسة تنفي الفرديات وتقضي على النوعية والاصالة وتتطلع الى مستقبل ينخلع فيه المجتمع من كل ما يميزه كمجتمع والفرد من كل ما يميزه كانسان . كما ان الاشتراكيين يأخذون على الشيوعيين انهم يعيشون معنا بأجسامهم ويعيشون مع الروس بأرواحهم وينظرون الى مشاكلنا بعين غريبة .

وهكذا نلاحظ ان الحركات الرجعية تنطلق من وجهة نظر متخلفة عن روح العصر من جهة ، كما انها تنطلق من وجهة نظر دينية لا قومية . أما الحركات الشيوعية فهي تنطلق من وجهة نظر مادية من جهة ومن وجهة نظر أممية من جهة أخرى . أما الاحزاب الاشتراكية فعلى الرغم من ان بعضها اقليمي والبعض الآخر قومي فهي تنطلق جميعها من وجهة نظر تقدمية داخلية تنبع من حاجات المجتمع ، لذلك بقيت الحركات الاشتراكية الجدية في بلاد العرب في منأى عن التناقضات السياسية التي وقع فيها الرجعيون والشيوعيون .

يضاف الى هذا الخلاف في نقاط الانطلاق خلاف في أساليب التنظيم والعمل . فالطابع العام الذي يغلب على

أساوب الشيوعيين وتنظيماتهم هو الطابع المركزي الآلي وبصورة خاصة الحزب الشيوعي السوري الذي أصبحت فيه «النزعة البكداشية» رمزاً للاسلوب الفردي المركـــزي الديكتاتوري . أما الطابع المسيطر على المنظمات الرجعية فهو بدوره طابع مركزي آلي مشفوع بالتأثيرات الايحائيـــة التي تستغل طراز حياة جيل من الشباب يعيشون بحكــــم بيئتهم المتخلفة على التقاليد والذاكرة . لذلك كانت أساليب العنف والارهاب الفكري والاغتيال مألوفةفي حياة الحركات الرجعية والشيوعية في الوطن العربي . في حين ان الحركات الاشتراكية كانت تشكو غالباً من عفوية التنظـــيم ومن المبالغة في الروح الديمقراطية التي تربط بين قاعدة هذه الحركات وقياداتها .

ثمة خلاف من نوع آخر قام بين الاتجاهات العقائدية التي مر ذكرها ينحصر في نوع الارتباط الذي كان يقوم بين هذه الحركات ضمن الاقطار العربية.فالاحزاب الشيوعية أقامت تنظيماتها على أساس اقليمي ، فكانت قيادة الحزب الشيوعي في مصر مثلاً ، مستقلة في عملها عن تنظيمات الحزب الشيوعي في العراق أو في سوريا ولبنان ، بالرغم من انها جميعاً تستقي تعليماتها من مصدر خارجي واحد . وذلك حرصاً منها على تثبيت التجزئة وخوفاً من الفكرة القومية والوحدة العربية التي تشكل عند العرب مناعة في وجه الحركات التي تستند الى ايحاءات خارجية . أمـــــا

الحركات الرجعية فقد بدأت حياتها على أساس اقليمي ، وحتى أضيق من الاقليم ، أي على أساس المناطق ، فكانت قياداتها موزعة الى ان ظهرت منظمة الاخوان المسلمين ، وعندئذ تجمعت هذه الحركات على نفسها واصبحت تنظيماتها تحمل طابعاً سياسياً يتعدى حدود البلاد العربية أي انها ارتبطت بالحركات الرجعية في بلاد اسلامية كتركيا والباكستان وأقامت معها صلات وأواصر معروفة . أما الحركات الاشتراكية فقد انقسمت منذ نشأتها الى حركات « اقليمية » يقتصر نشاطها على القطر الذي نشأت فيه ، والى حركات « قومية » تقيم تنظيماتها على أساس قومي شامل ، أي ان لها فروعاً في الاقطار العربية ترتبط جميعها بقيادة مركزية واحدة .

تلك هي وجوه الاختلاف بين الاتجاهات والحركات العقائدية التي كانت وما تزال تتوزع الرأي العام العربي .

بين الاشتراكية العربية والاشتراكية الاوروبية

ان الظروف التي ظهرت فيها الاشتراكية الاوروبية ، والمشاكل التي واجهتها ، والمجتمع الذي ولدت فيه تختلف عن ظروف ومشاكل المجتمع العربي ، لذلك كان من الخطأ أن ننظر الى الاشتراكية العربية من خلال الاشتراكية الاوروبية . لذلك كان من المفيد ان نقف على الفرق بين الاشتراكية العربية والاشتراكية الاوروبية ، هذه الفروق

التي نعدد بعض وجوهها فيما يلي :

آ — ان ظهور الاشتراكية في المجتمع الاوروبي كحركة منظمة كان على أثر ظهور الصناعة الكبرى التي اجتذبت في مصانعها الكبيرة عدداً غفيراً من العمال ودفعت جماهير كثيرة من الفلاحين وصغار الصناع واصحاب الحرف الصغيرة الى هجر قراهم وزراعتهم وحرفهم والتجمع في المدن كعمال مأجورين بعد ان كان للفلاح أرضه وأسرته ووسطه الاجتماعي وتقاليده الروحية ، وبعد ان كان للصانع الصغير المستقل حريته ولذته في العمل . الامر الذي أدى الى تجمع هذه الجماهير التي أصبحت بمثابة آلات بشرية ، والى ارتباطها ارتباطاً سلبياً طابعه النقمة والبؤس . فكانت النظريات الاشتراكية من وحي هذا الوسط السلبي . أما الاشتراكية العربية فقد كان ظهورها في بلاد متخلفة اقتصادياً ، لا صناعة كبرى فيها ولا طبقة عاملة متكتلة حاقدة ، لذلك كانت الاشتراكية العربية نتيجة من نتائج الوعي الاجتماعي ، حملتها الطليعة المثقفة وبشرت بها ثم انتشرت بين صفوف الفلاحين وكانت تعبيراً عن حاجة المجتمع العربي الى اعادة النظر في تكوينه الاقتصادي كجزء من تكوينه العام ، لذلك ارتبطت الاشتراكية العربية بفكرة الحرية والوحدة العربية .

ب — ان طابع النظريات الاشتراكية في أوروبا طابع أممي تخطى النطاق القومي ولم يعترف بالوطن ، واعتبر

نضال العمال وحدة عالمية متماسكة ضد مصالح رأسمالية موحدة عالمياً ، في حين ان الاشتراكية العربية انطلقت من الفكرة القومية ، وسبب ذلك يعود الى ان الاشتراكية الاوروبية جابهت مشكلة اقتصادية في حين ان الاشتراكية العربية وجدت نفسها أمام مجتمع يحتاج الى تبديل أساسي في تكوينه لانه مجتمع متخلف من جميع نواحيه ، ولم تكن المشكلة الاقتصادية سوى جانب من جوانب المشكلة.

حـ — لم تظهر الاشتراكيات الغربية في ظل مجتمعات تعاني الاحتلال والتحكم الاجنبي بل قامت في ظل مجتمعات استكملت تجربة الحرية وشروط وحدتها القومية ، بل أكثر من هذا فانها دخلت في دور جديد هو دور التوسع ، لذلك لم تكن القومية هي المحرك الاساسي في حياتها كما لم تكن تجربة الحرية هي ما تعانيه ، بل ان القومية كانت أداة للاستغلال في يد الطبقات الرأسمالية المتمولة المسيطرة على الدول الاوروبية . واداة للعدوان والاستعمار بغية ايجاد مصرف لنشاطها العسكري والاقتصادي كما كانت تعني في تلك الفترة تكريساً للفروق التاريخية التي أضعفت تطور أثرها في الحياة الاوروبية . لذلك كانت القومية في الغرب تسير في اتجاه رجعي يتناقض مع اتجاه الاشتراكية التقدمي. اما الاشتراكية العربية فقد نشأت في ظروف مختلفة تماماً . فالأمة العربية فاقدة لحريتها وسيادتها ولوحدتها القومية لذلك كانت القومية بالنسبة الى المجتمع العربي تجربة انفتاح

وانطلاق وتحرر ، وكانت بالنسبة الى العرب بمثابة الاشتراكية للأوروبيين .

بعد هذه الملاحظات نقف على تاريخ الحركة الاشتراكية العربية .

نشأة الحركة الاشتراكية العربية

مرت الحركة الاشتراكية في الوطن العربي بمراحل ست :

آ ـ مرحلة التأثيرات الغربية : وفي هذه المرحلة نلاحظ ان البعثات الثقافية الى أوروبا كانت سبباً في تأثر بعض الشباب العرب بالافكار الاشتراكية وبصورة خاصة اشتراكية حزب العمال البريطاني التي تصعد في أصولها الى الفكرة التعاونية التي بشر بها المصلح الاجتماعي روبيرت أوين . وقد حملوا هذه الافكار الاشتراكية عند عودتهم الى الوطن ، وبدأوا يبشرون بها إما عن طريق العمل السياسي أو عن طريق العمل الفكري والاحاديث النظرية .

وكان أول من نادى بالاشتراكية ودعا لها الدكتور شبلي شميل في مجلتي المقتطف والمستقبل ، وكانت الاشتراكية في رأيه نتيجة حتمية لسير التطور والنشوء ، وكان متأثراً في ذلك بنظريات داروين وتفسيرات بوخنر لهذه النظريات وفي عام ١٩٠٨ ظهر في مصر حزب سمي (الحزب الاشتراكي المبارك) كان على رأسه الدكتور محمد جمال

الدين الذي بدأ بعد عودته من باريس يطالب بتحسين أحوال الفلاحين . وفي سنة ١٩١٠ برز في مصر أيضاً مفكر يدعو للاشتراكية الديموقراطية التي كانت تتبناها (جمعية الفابيين) وهي الجمعية التي أسسها في انكلترا (برنارد شو) ، وهذا المفكر هو سلامه موسى .

ب — مرحلة التأثيرات الشيوعية : وهي المرحلة التي تبدأ مع قيام الثورة الروسية وتسرّب الافكار الماركسية عن طريق المثقفين الذين درسوا في أوروبا ، واحتكوا هناك بالمنظمات الشيوعية الفتية وبصورة خاصة في فرنسا . وتبدو آثار هذه المرحلة في الجمعيات والاتجاهات الادبية والنشاط الثقافي ، وغيرها من العوامل التي مهدت لنشر الأحزاب والمنظمات الشيوعية .

جـ — مرحلة النشاط الشيوعي : وهو النشاط الذي امتد بين عام ١٩٢٠ — ١٩٢٩ . فقد كان النشاط الجماهيري خلال هذه الفترة واقعاً تحت تأثير الاتجاهات الشيوعية ، فبعد نجاح الثورة الروسية بدأت الطليعة العربية تتطلع الى هذه التجربة الثورية الجديدة في العالم . والتي تحمل معها منطقاً جديداً وفلسفة جديدة ونظرة الى الحياة فيها من الاصالة ما يستهوي الشباب الذين يتطلعون الى تجربة حاسمة في حياة أمتهم . لا سيما وان الافكار والحركات الاشتراكية كانت حتى عام ١٩٢٠ مجرد تيارات مقلدة ساهمت في تعريف الاوساط العربية بفكرة الاشتراكية دون ان تحقق

نجاحاً عملياً أو تؤسس حركة جدية، لذلك بدأت الاحزاب الشيوعية تتكون في البلاد العربية وتركز جهودها على الاوساط العمالية والاقليات القومية وبعض الطوائف .

د — مرحلة الحركات الوطنية : منذ عام ١٩٣٠ بدأت الحركات الوطنية كحزب الوفد في مصر ، والكتلة الوطنية في سوريا والحركات الشعبية في لبنان ، والاتجاه القومي للرأي العام الشعبي وبين صفوف الجيش في العراق بالاضافة الى الثورات التي قامت في سوريا وفلسطين والعراق والتي كانت تحمل طابعاً قومياً عربياً الى جانب طابعها القطري بدأت هذه الحركات الوطنية تستقطب الجماهير وتحتل الساحة وتبعد الشيوعيين عن استلام زمام المبادهة ، ومنذ ذلك الحين أخذت الحركات الشيوعية تعمل على هامش هذه الحركات الوطنية ، فبدأت تناقضات الحركة الشيوعية تظهر وتنكشف حقيقتهم في كل مناسبة تتعارض فيها مصلحة السوفيات مع مصلحة بلادنا ، كما بدأ التخبط في سلوك هذه الاحزاب والتمزق والانقسام يدخل الى صفوفنا .

فبالرغم من ان نشاط الشيوعيين والاحزاب الشيوعية في البلاد العربية ساعد على رفع مستوى التحسس الشعبي الجماهيري بالقضايا العامة ، الا ان نجاح الشيوعيين كان مقصوراً على المجال السلبي . ذلك لان شعارات الشيوعيين لم تتجاوب مع طبيعة المجتمع العربي ، لذلك توقف نمو الحركات الشيوعية وانتشارها على البيئات الحاقدة على العروبة

وعلى بعض الاوساط العمالية والتنظيمات النقابية وبعض الاوساط المثقفة التي يقتصر نشاطها على مناقشة القضايا السياسية في المقاهي بمنطق شيوعي غير مسؤول .

هـ — مرحلة الاشتراكيات القومية : تبدأ هذه المرحلة مع الحرب العالمية الثانية وتتضمن فترتين : أولاهما تبدأ مع الحرب وتنتهي مع تقسيم فلسطين والثانية تبدأ مع المأساة التي تمت بعد حرب فلسطين عام ١٩٤٨ .

في الفترة الاولى فتحت الحرب المجال أمام العرب لكي يدركوا أهمية الصراع الدولي والافكار والنظريات التي ينطوي عليها . أما في الفترة الثانية فقد انكشف للعرب مدى التردي والتفسخ والفساد الذي انتهى اليه المجتمع العربي . لذلك حملت الفترة الاولى من هذه المرحلة معها نشوء حركات : البعث العربي والعربي الاشتراكي في سورية وحركة الوطني الديمقراطي في العراق والتقدمي الاشتراكي في لبنان وهي حركات يرجع اليها الفضل في تركيز الوعي الجماهيري حول أهداف ومثل عليا ، وفي تنبيه الجماهير العربية الى خطورة الاوضاع التي تحيط بها وفي الكشف عن التناقضات القائمة في المجتمع العربي .

أما الفترة الثانية من هذه المرحلة فقد حملت معها سلسلة من الانتفاضات قام بها العسكريون في كل من سورية ومصر والاردن ، وبدأت الفكرة الاشتراكية تنتقل من صفوف الحركات الشعبية الى الصعيد الرسمي فأصبحت

شعاراً للمجتمع الذي تقوم عليه الجمهورية العربية المتحدة.

و — مرحلة تزييف الشعارات : عندما تأسس حزب البعث العربي كان أول حزب عربي نص في دستوره على الصفة الاشتراكية لحركته ،وكان مؤسسو الحزب يدركون خطورة هذه التسمية وما ستجره من متاعب وما ستفتحه من جبهات في وجههم ، غير ان جدية هذه الحركة وسلامة اتجاهها قلب شعار الاشتراكية من شبح مخيف يلتبس مفهومه بمفهوم الشيوعية والالحاد ومناهضة القيم الروحية الى شعار محبب لدى جماهير العمال والفلاحين والمثقفين ، الامر الذي دفع الاحزاب والحركات الانتهازية والرجعية وحتى الاقطاعية الى التسلح بالاشتراكية والتستر خلفها بغية اصطياد الجماهير وحجب هويتها المزيفة ، فقام الحزب التعاوني الاشتراكي في سورية يتزعمه فيصل العسلي ، وحزب الامة الاشتراكي في العراق يتزعمه صالح جبر وحتى الاخوان المسلمون نادوا بالاشتراكية الاسلامية ، كما ان حليفهم السياسي الكبير حزب الشعب في سورية نادى بالاشتراكية الدستورية التي تحدث عنها الدكتور عبد الوهاب حومد ورشاد برمدا في محاضرات عامة في مركز الحزب في حلب ، وكذلك الحزب الوطني في سورية وقادته من نوعية اقطاعية ورأسمالية شبيهة بنوعية حزب الشعب نادى أيضاً على لسان بعض قادته كصبري العسلي وفاخر كيالي بالاشتراكية المعتدلة لذلك أغفلنا هذه الحركات لأنها اتخذت من الاشتراكية

شعاراً مزيفاً واقتصرنا على الحركات الاشتراكية التي تملك تكويناً عقائدياً . وهذه الحركات الاشتراكية تتمثل في تيارين : أحدهما تمثله حركة البعث العربي الاشتراكي وهو تيار قومي . أما التيار الثاني فيتمثل في حركتين اقليميتين هما : الوطني الديمقراطي في العراق ، والتقدمي الاشتراكي في لبنان . .

حركة البعث العربي الاشتراكي

هذه الحركة هي كما يصفها دستورها : حركة قومية شعبية انقلابية تناضل في سبيل الوحدة والحرية والاشتراكية وفي حديث لميشيل عفلق فيلسوف هذه الحركة يقول : لقد كان ظهور حركة البعث ثورة في تاريخ الأمة العربية بمعنى ان حركة البعث لم تكن استمراراً لما قبلها ، بل كانت عبارة عن انقطاع أو بتر ارادي واعٍ وارتفاع الى مستوى جديد من التفكير والاخلاق والجو الروحي ، وفي هذا الحديث يقول أيضاً : لقد بدأت حركتنا بدءاً متواضعاً جداً ، وكان سر قوتها في هذه البداية المتواضعة ، لانها انطلقت قوة أصيلة صادقة لا زيف فيها ، لم تعتمد على شيء من القوى الراهنة الزائفة ، بل كانت ترجمة لاستعدادات وامكانيات قائمة ولكنها مغطاة في أعين أكثر الناس . وكانت نظرتها من البداية بعيدة بكل معاني الكلمة ، بعيدة في العمق بعيدة في السطح وبعيدة في الزمان . لقد نفذت

نظرتها الى أعماق الامة وحقيقتها المغلقة بواقع مريض ومشوه واتسعت نظرتها وهي التي ولدت في قطر صغير من أقطار الوطن العربي الواسع فشملت أجزاء هذا الوطن ولم تغفل أحداً منه ، ونظرت نظرة بعيدة في الزمن، أي انها توجهت الى الشباب ، الى تلك السن التي تحتاج الى زمن غير قريب لكي تصبح قوة بالمعنى المتعارف عليه ، توجهت الى الشباب العربي في جميع أقطاره . لذلك كانت في روحها وفي نزعتها العميقة تتطلب دوماً الصعب ، تتطلب الشيء العميق والاصيل الذي لا يغلب بسهولة وتترفع وتعف عن كل ما هو قريب وسهل . لذلك اختلفت حركة البعث اختلافاً نوعياً لا كمياً عن كل ما سبقها من حركات في الوطن العربي لانها طرحت قضية الامة العربية طرحاً ثورياً لأول مرة منذ مئات السنين .

نشأت حركة البعث العربي الاشتراكي هذه من اندماج حزبين هما : حزب البعث العربي ، والحزب العربي الاشتراكي عام ١٩٥٤ . أما حركة البعث العربي فقد بدأت عام ١٩٤٠ حين قدم مؤسساها : ميشيل عفلق وصلاح البيطار استقالتهما من وزارة المعارف حيث كانا يعملان مدرسين في التجهيز الأولى في دمشق وكانت هذه الاستقالة بما سبقها من تبشير بالفكرة التي انطلقت منها حركة البعث ، وبما رافقها من ظروف ، مناسبة تاريخية بدأت معها ولادة هذه الحركة . وقد ساهمت حركة

البعث في أول نشأتها في ثورة العراق عام ١٩٤١ عن طريق ارسال المتطوعين انسجاماً منها مع نظرتها القومية الشاملة الى القضية العربية . وفي عام ١٩٤٣ القى ميشيل عفلق على مدرج الجامعة السورية خطابه بمناسبة ذكرى الرسول العربي .. هذا الخطاب الذي يعتبر بحق الاطار العام لفلسفة حركة البعث ، لأنه حدد فيه نقطة الانطلاق القومية بالنسبة الى العرب لا في هذه المرحلة من تاريخ أمتهم فحسب ، بل كركيزة لحياتهم ورسالتهم الانسانية وقد توفر لحركة البعث ما لم يتوفر لغيرها من الحركات السياسية من وضوح الاهداف الى جانب التنظيم الذي اتسم بالديموقراطية يضاف الى ذلك الطابع الخلقي والروح الخلقية وعدم التساهل في قبول الاعضاء والعناية بتربيتهم وتكوينهم كجيل مهيأ للقيام بمهمة تاريخية هي بعث الأمة العربية .

وفي عام ١٩٤٧ انعقد أول مؤتمر للحزب انبثق عنه دستور يحدد مبادىء واهداف هذه الحركة ونظام داخلي يقوم على أساسه هيكل الحزب . وفي هذا العام أيضاً أصدر الحزب صحيفته اليومية وبدأ يتجه في انتشاره الى أوساط المثقفين والعمال والفلاحين ، وبدأت تنظيماته وخلاياه الى جانب نشراته الداخلية تساهم في تكوين الطليعة العربية ، فما لبث ان استقطب الحزب طليعة غنية بطاقاتها النضالية واخذ الحزب يقود المظاهرات وبدأت مواقفه الحاسمة في القضايا العامة السياسية والاجتماعية تفتح له طريق النمو

فاتسعت قاعدته وانتشرت سمعته في جميع الاوساط . وفي عام ١٩٤٨ ساهم الحزب في معركة فلسطين وفضح من خلالها الفئة الحاكمة في الاقطار العربية ، كما كشف عن العوامل الموضوعية التي تسبب التناقض بين واقع العرب وامكانياتهم وهيأ الجو لقيام الانتفاضات في كل من سورية ومصر والاردن بعد كارثة فلسطين .

الا أن الطابع الفكري بقي مسيطراً على حركة البعث، فالتبشير بالفكرة ومحاولة خلق منطق جديد يفسر الحوادث من خلال نظرة عربية مستقلة متحررة اشتراكية هو ما كان يستأثر بنشاط البعث العربي ، لذلك بقيت هذه الحركة غنية بالشباب المثقف ، بشباب الطليعة وظلت مفتقرة الى القاعدة الشعبية الواسعة ، فقد حقق لها تكوينها النضالي وطابعها الخلقي المثالي سمعة طيبة لدى جمهور الشعب دون ان يربطها بالجماهير ربطاً عامياً .

وفي عام ١٩٥٤ تم دمج هذه الحركة بالحزب العربي الاشتراكي الذي كان يقوده أكرم الحوراني ، والذي بدأ في حماه تحت اسم حركة الشباب التي كانت تضم النخبة المثقفة من أبناء الشعب في حماه التي كانت تلتف حول زعيم شعبي هو أكرم الحوراني . وقد كانت شعارات هذه الحركة شبيهة بشعارات حركة البعث ، كما كان دستورها نسخة عن دستور حزب البعث تقريباً ، وهي وان كانت قد اتخذت في البدء طابعاً محلياً ارتبط بمقاومة

الاقطاع الجشع في منطقة حماه ، غير ان هذه الحركة سريعاً ما اتسعت قاعدتها الشعبية وشكلت حزباً سياسياً عام ١٩٤٨ تحت اسم الحزب العربي الاشتراكي أصبح له فروع في أكثر المدن السورية وخاصة في الريف . كما انه أصدر جريدة تنطق باسمه اطلق عليها اسم « الاشتراكية » وباتحاده مع حزب البعث نشأت حركة جديدة أطلق عليها اسم البعث العربي الاشتراكي . ولم تتوقف هذه الحركة على حدود مهدها الأول (الاقليم السوري) بل تجاوبت شعاراتها مع نفوس الطليعة المثقفة في البلاد العربية الأخرى ، لأنها ملأت الفراغ الذي كان الشيوعيون والرجعيون يستغلونه ، واصبح لها فروع في الاردن والعراق كما امتد نشاطها الى لبنان ومصر والسودان وقطر والبحرين وعدن وقد وصل نشاط هذه الحركة الى الاقطار العربية البعيدة عن طريق طلاب الجامعات الذين درسوا في دمشق وبغداد وبيروت .

وان الوحدة مع مصر التي جاءت ثمرة لنضال طويل ساهمت فيه حركة البعث بقسط كبير ، والاطمئنان الى سلامة الاتجاه في مصر والى التلاقي في الاهداف والشعارات بين رجال الثورة وبين حركة البعث ، دفع الحزب الى ان يحل نفسه كشكل تنظيمي في الجمهورية العربية المتحدة وان يبقى كفكرة وشعارات ترتبط بنشاط فروع الحزب في الاقطار العربية الأخرى ارتباطاً مبدئياً عفوياً انسجاماً

مع مبدأ وحدة النضال العربي الذي نادى به الحزب منذ نشوئه ، وتحقيقاً للصورة التي رسمها الحزب نفسه على لسان المؤسس الأول للفكرة وهو ميشيل عفلق اذ يقول في حديث له عام ١٩٤٨ : ان حزبنا هو حزب عربي ، بمعنى لم يتخذه أي حزب آخر ، فهو لا يكتفي باقرار الفكرة العربية ، وانما يسعى في واقعه عدا عن فكرته الى ان يكون الحزب العربي الشامل المنتشر في كل الاقطار العربية ، والذي يعالج المشاكل العربية ككل لا يتجزأ ، ولا يعالج المشاكل القطرية الا على ضوء مصلحة الامة العربية.

ان فكرة البعث تقوم على ثلاث دعائم : (الوحدة العربية ، والحرية ، والاشتراكية) . أما تنظيمه فيستهدف تكوين جيل جديد يكون في مستوى حمل هذه الفكرة . أما الاسلوب الذي تبنته هذه الحركة لتحقيق أهدافها فهو طريق (النضال) بمعنييه : الايجابي والسلبي . وهو يمكننا ان نلاحظ من خلال حياة الحزب ان فكرته كانت دوماً أقوى من جسده ، لذلك كانت شعاراته تسبق نشاطه.

ان أهم ما فعلته حركة البعث على الصعيد الايديولوجي انها وضعت قضية الامة العربية ومصيرها ضمن قضايا العالم ومصير الانسانية ، بعد ان كانت الحركات الوطنية تنكمش على نفسها وتتجاهل ما يجري في العالم . كما انها أكدت على فكرة القومية ووضعت بذور النظرية التي تلح على حقيقة القومية واثرها في حياة البشر وتكشف عن

النواحي الايجابية الثمينة في القومية ، وتربط القومية بالانسانية ربطاً حياً لا اصطناع فيه . ثم انها أعلنت وحدة الامــة العربية رغم جميع المظاهر التي كانت تتحدى هذه الوحدة وأعلنت في نفس الوقت رسالة الأمة العربية الانسانية الخالدة رغم كون الامة العربية في حالة سلبية فاقدة لكل ابداع ، تعيش عالة على غيرها . كما انها وضعت القضية القوميـة في قلب الواقع اذ وضعت المشكلة الاجتماعية في صميم الثورة القومية ووضعت مشكلة عيش الملايين من أفراد الشعــب العربي ورزق الملايين الذين تعطل امكانياتهم الاوضـــاع الاجتماعية الجائرة المعكوسة ، فاعتبرت الاشتراكية شعاراً رئيسياً لها . كما انها طرحت مشكلة الحرية على أوسع نطاق اذ طرحت مشكلة التحرر من الاستعمار ومن النفوذ الاجنبي ومن الاستغلال والتبعية . كما طرحت مشكلة التحرر في الداخل من جميع النواحي السياسية والاجتماعية والفكرية . كل ذلك ضمن اطار نظرة عامة شاملة تحمل معها وجهة نظر جديدة للحياة .

فالقومية كما يتحدث عنها ميشيل عفلق في حديث لـه عام ١٩٤٠ هي حب قبل كل شيء ، هي نفس العاطفة التي تربط الفرد بأهل بيته ، لذلك فهي تفعم القلب فرحاً وتشيع الأمل في جوانب النفس ويود من يشعر بها لو ان الناس يشاركون في هذه الغبطة التي تسمو فوق الانانية الضيقـة وتقرب الانسان من أفق الخير والكمال ، فهي أبعد مـا

تكون عن البغضاء والحقد والتعصب وهي ثمرة لنضج الانسانية . وفي مقال له عام ١٩٥٠ يقول : نسمع البعض يقولون : العروبة فوق الجميع ، ولكن في هذا القول خطراً . فنحن نؤمن بأن العروبة فوق المصالح والانانيات والاعتبارات الزائفة الزائلة ، ولكن شيئاً واحداً نؤمن بأنه فوق العروبة الا وهو الحق ، فيجب ان يكون شعارنا : (الحق فوق العروبة الى ان يتحقق اتحاد العروبة بالحق) .

ومنذ عام ١٩٤٣ ورد في خطاب ميشيل عفلق على مدرج الجامعة ما يشير الى موقف حركة البعث من الشيوعيين الذين كانوا يجتمعون اذ ذاك بتأييد القوات المحتلة الحليفة لروسيا في الحرب اذ يقول : « ولا تخيفنا تلك الفئة الشعوبية المدعومة بسلاح الاجنبي المدفوعة بالحقد العنصري على العروبة لان الله والطبيعة والتاريخ معنا. انها لا تفهمنا فهي غريبة عنا ، غريبة عن الصدق والعمق والبطولة ، زائفة مصطنعة ذليلة . لا يفهمنا الا المؤمنون بالله . قد لا نرى نصلي مع المصلين أو نصوم مع الصائمين ، ولكننا نؤمن بالله ، ونحن وصلنا الى هذا الايمان ولم نبدأ به ، وكسبناه بالمشقة والالم ولم نرثه ارثاً ولا استلمناه تقليـــداً ، فهو لذلك ثمين عندنا لانه ملكنا وثمرة أتعابنا » . وفي نشرة داخلية للحزب عام ١٩٥٠ يقول ميشيل عفلق : لقد كان ظهور البعث العربي منذ عشر سنوات ايذاناً بحرب صريحة على الشيوعية باعتبارها حركة مادية سلبية حاقدة . فالشيوعية

ليست الا يقظة مصطنعة للذين فقدوا الاتصال بروح امتهم ويئسوا من كل خلاص يأتي من داخله . وفي مقال لـه عام ١٩٤٧ يقول هناك حالة مرضية في مجتمعنا هي حالة تحكم فئة قليلة بغالبية الشعب .انهاحالة الاقطاعية والاستغلال. وهناك جواب مريض وهو الحركة الشيوعية التي جاءت تداوي المرض بالمرض. . ثم يقول: « اننا آمنا بالاشتراكية كحل ايجابي لمشكلة المجتمع العربي ولم نلحقها بمبادئنـا الحاقاً . اننا آمنا بها من أعماقنا لانها تفصح عن حاجات أصيلة جوهرية في امتنا ولم نأخذها (كرفع عتب) ومسايرة كي لا يقال اننا اقطاعيون أو رجعيون أو لكي لا تنجح الحركة الشيوعية وتأخذ أنصارنا » .

أما الاشتراكية التي يدعو اليها حزب البعث فهي نظام اقتصادي يستهدف الكشف عن المواهب والامكانياتالكامنة في الشعب العربي ، لكي يتحقق لهذا الشعب واقع يمكنه من المساهمة في التقدم البشري . وفي نشرة ميشيل عفلق (حول الاشتراكية العربية) يكشف عن الطابع الروحيلهذه الاشتراكية اذ يقول « لو سئلت عن أسباب ميلي الـى الاشتراكية لاجبت : ان ما أطمع به منها ليس زيادة في ثروة المعامل ، بل في ثروة الحياة . وليست هي ان يتساوى الناس في توزيع الطعام بقدر ما يهمني ان يتاح لكل فرد اطلاق مواهبه وقواه . قد لا يرى العامل الرازح تحـت بؤسه من الاشتراكية الا وعداً بأن يأخذ ما هو محروم منه

ولكني لا أنظر اليها الا كعطاء دائم سخي . بأن نعطي الحياة أضعاف ما بذلته لنا . فأنا أفكر بكل الذين يتململون في زوايا القبور من ثقل الآمال التي لم يتح لهم المجتمع تحقيقها في الحياة ، ومن كنوز الخير والحب والحماسة التي بقيت كامنة في قلوبهم وما تسنى لهم من اظهارها واستخدامها فاذا كنت أدعو الى الاشتراكية فلكي لا تحرم الحياة من مواهب هذه النفوس وقواها الدفينة وجهودها الحرة الخصبة . »

ثم يقول : « ما نظرت الى الاشتراكية يوماً من الايام كواسطة لاشباع الجياع وإلباس العراة فحسب ، ولا يهمني الجائع لمجرد كونه جائعاً ، بل للممكنات الموجودة فيه التي يحول الجوع دون ظهورها . ولا أرى الأكل غاية له بل سبيلاً ليتحرر من الضرورات الحيوانية وينصرف الى القيام بوظيفته الانسانية . فاذا سُئلت عن تعريفي للاشتراكية أجيب : بأنها ظفر الحياة على الموت ، فهي بفتحها باب العمل أمام الجميع وسماحها لكل مواهب البشر وفضائله ان تتفتح وتنطلق تحفظ ملك الحياة للحياة ولا تبقي للموت الا اللحم الجاف والعظام النخرة . »

أما عن الفروق البدئية بين اشتراكية البعث والاشتراكية الشيوعية فهي تنحصر في النقاط التالية : أولاً الاشتراكية الشيوعية مطبوعة بالفلسفة الشيوعية . أما اشتراكية البعث فمطبوعة بفلسفة المجتمع العربي النابعة من شروطه التاريخية وحاجاته وأوضاعه الخاصة وشخصيته المستقلة لذلك تقول

المادة ٤ من دستور الحزب « حزب البعث الاشتراكي يؤمن بأن الاشتراكية ضرورة منبعثة من صميم القومية العربية لأنها النظام الأمثل الذي يسمح للشعب العربي بتحقيق امكانياته وتفتح عبقريته على أكمل وجه فيضمن للأمة نمواً مضطرداً في انتاجها المعنوي والمادي وتآخياً وثيقاً بين أفرادها » . ثانياً : الفلسفة الشيوعية تقوم على أساس الايمان بالمادة وتفسر التاريخ بالعامل الاقتصادي . أما فلسفة البعث فتؤكد على الأثر العظيم الذي يلعبه العامل الفكري والروحي في تطور التاريخ وتقدم الانسانية بجانب العامل الاقتصادي . ثالثاً : الفلسفة الشيوعية لا تقيم كبير وزن للفرد ، أما اشتراكية الحزب فتعتمد على الفرد وتحرر شخصيته ولا تجيز قيام دكتاتورية مستبدة تقتل الحرية الشخصية . رابعاً : الاشتراكية الشيوعية تقضي على حق الملك ولا تعترف بحق الارث وتقضي على الدوافع الذاتية الغريزية في الفرد . اما اشتراكية البعث فتبقي على حق الملك ولكنها تحدده وتعترف بحق الارث ولكنها تضع له قيوداً لا تسمح باساءة استعماله . فالمادة ٣٤ من دستور الحزب تقول : « التملك والارث حقان طبيعيان ومصونان في حدود المصلحة القومية . » ومن خلال ماورد في دستور البعث عن سياسة الحزب الاقتصادية نلاحظ ان الاطار العام لهذه الاشتراكية واضح غير ان الدراسات الموضوعية التفصيلية لم تجعل من هذه الاشتراكية نظرية مفصلة تستطيع

ان تجيب على التساؤلات الكثيرة التي يطرحها عادة أعضاء الحزب أو الذين يريدون ان يتعرفوا على الكيفية التي تعالج بها اشتراكية البعث حلول المشاكل التي تتعلق بمختلف وجوه الحياة الاقتصادية . وقد يكون السبب في هذاالتقصير عائداً الى الفقر الذي كان يشكوه الحزب من جراء عدم توفر الاختصاصيين ، وعدم اهتمام الحزب بتوجيه البعثات من أعضائه لدراسة التجارب الاشتراكية دراسة عميقة مفصلة . كما قد يعود الى طغيان المشاغل السياسية واستئثارها باهتمام قادة الحزب وترك الحلول الاجتماعية والاقتصادية في درجة ثانية من الاهتمام . وهذه بلا شك نقطة ضعف ما زال في وسع هذه الحركة ان تتداركها .

الحزب الوطني الديموقراطي

في عام ١٩٣١ تأسست في بغداد جمعية دعيت باسم « جمعية الاهالي » وهي منظمة شيوعية كانت تتألف من خريجي جامعات أمريكا وانكلترا وكلية الحقوق العراقية ؛ وقد كونت لنفسها حلقات ماركسية في الناصرية والبصرة وأصدرت جريدة « الاهالي » لتنطق باسمها . وكانت تنادي بالاصلاحات الداخلية والحريات الديمقراطية ، وهي شعارات شيوعية كما نعلم . كان كامل الجادرجي عضواً في هذه الجمعية ، وقد أدى قيام هذه الجمعية التي وضعت نفسها في الصف المعادي للقومية العربية الى تكتل العناصر

القومية في نوادي « المثنى » و « العجال » والى انجذابها الى النظريات القومية المنحرفة كالفاشستية.وعلى أثر الانقلاب الذي قام به بكر صدقي عام ١٩٣٦ اشترك ممثلون عن جمعية الاهالي في حكومة حكمت سليمان ، وتولى كامل الجادرجي وزارة المواصلات ، ولكنه استقال عندما اتجه بكر صدقي في انقلابه اتجاهاً معادياً للقومية العربية والدين ومخالفاً ما اتفق عليه سابقاً . أما جمعية الاهالي فقد انتهت الى الابتعاد عن التيار الشعبي لعدم تفاعلها مع الحركة القومية وتمسكها بشعاراتها اليسارية الشعوبية ، فاقتصر نشاطها على استغلال المشاكل الطائفية والقبلية والعنصرية وكل العناصر المعادية للقومية العربية ، فكانت خميرة للحزب الشيوعي الذي قام على انقاضها .

ان هذه التجربة كانت درساً للجادرجي حاول ان يستفيد منه ، وان يجمع في حركة جديدة الشعارات القومية الى جانب الشعارات اليسارية . فكان حزبه : الحزب الوطني الديمقراطي الذي تأسس عام ١٩٤٦ . غير ان هذا الحزب بقي منذ تأسيسه حتى عام ١٩٥٠ دون مبادىء واضحة يكتفي بالاعتماد على سمعة زعيمه الذي كان يمثل وجهاً شعبياً مناضلاً في العراق . وفي ٢٩ تشرين الثاني من عام ١٩٥٠ اجتمع مؤتمر الحزب . وفي هذا المؤتمر اعترف الجادرجي بأن معظم الخلافات التي نشأت في داخل الحزب ترجع الى غموض فكرته وعدم تحديدها ؛ وأشار الى أنه

سبق وتقدم منذ ١٥ آب من عام ١٩٤٧ بتقرير الى اللجنة الادارية المركزية يبين فيه ان أقرب فلسفة الى مبادىء الحزب من أي مذهب تقدمي آخر ، هي الاشتراكيــة الديموقراطية ولكن اللجنة لم تقبل وجهة نظره آنذاك غير ان اللجنة ما ابثت ان عادت فأقرت بتاريخ ٢٦ تشرين الاول عام ١٩٥٠ قبول مبدأ الاشتراكية الديمقراطية مذهباً سياسياً واجتماعياً واقتصادياً . وقد أوضح الجادرجي في خطابه في هذا المؤتمر ، ان الحزب الوطني الديمقراطي لا يتقيد بمشاركة الاحزاب الاشتراكية الديمقراطية في العالم في جميع الظروف والاحوال آراءها في جميع المواضيــع والقضايا حرصاً منه على الطابع القومي لحركته . فهــو يقول : « اننا وان كنا أقرب الى حزب العمال البريطاني في فلسفته الاصلاحية التقدمية ، الا أننا لا نتفق معه في سياسته الخارجية التي تسيرها النزعات الاستعمارية » . كما ان الجادرجي حاول في هذا الخطاب ان ينفي الصفة الشيوعية التي كان قد ورثها من انتسابه إلى جمعية ماركسية في الماضي كما حاول ان يوضح المدى الذي يذهب اليه حزبه في التزام الاشتراكية الديمقراطية ، فيقول : « ان هذه النظرية لا تفرض علينا ان نستند الى بلاد أخرى بدعوى انها ، أو ان الحزب القائم فيها يدين بالاشتراكية . فالمفروض في الاشتراكيين الديمقراطيين في بلد ما أنهم يرون من واجبهم الدفاع عن فلسفة هذا المبدأ فقط من دون الالتزام لتأييد

سياسة الاشتراكيين الديموقراطيين في البلدان الأخرى » .

وفي هذا الخطاب يعلن الجادرجي تمساك حزبه بموقف الحياد في الصراع الدولي ، غير انه يسوق ذلك في صيغة أقرب الى التعابير الشيوعية اذ يقول : « أما بشأن الموقف الدولي فاننا نشجب الدعوة للحرب ولا نريد ان تكون بلادنا ساحة لحرب ماحقة ، وهذا الموقف يتفق مع فكرة الحياد المنتشرة في الاوساط الشعبية العربية » . وفي هـذا الخطاب يشير كامل الجادرجي الى الغاء حكومة الوفد في مصر وقتذاك لمعاهدة ١٩٣٦ ، فيؤيد هذا الالغاء ويكشف عن الصفة القومية لحزبه اذ يقول : « ونحن عندما نشعر بهذه العاطفة تجاه مصر ، لا نشعر بأننا نعبر عن عاطفة خاصة تجاه بلد عربي معين ، وانما نشعر في الوقت ذاته بأن من واجبنا مناصرة كل بلد عربي يدافع عن حقوقه ومصالحه لاننا نعتبر أنفسنا جزءاً من كل ، فالشعوب العربية بل في الواقع الشعب العربي أمة واحدة ، ولكـن المصالح الاستعمارية هي التي مزقتها الى دول واقامت بينها هذه الحدود المصطنعة ، لذلك يهدف الحزب الى جمـع شتات الأمة العربية وضمها الى دولة اتحادية تسعى الى هدف واحد الا وهو اسعاد الأمة العربية وانقاذها من الاستعمار على ان يكون لكل قطر عربي مطلق الحرية في شؤونه الخاصة » . ولا يحتاج المرء الى كبير جهد كي يكتشف من خلال هذه العبارات زيف الطابع القومي الذي تدعيه

حركة الجادرجي . لان هذه العبارات كانت شعارات شيوعية لمرحلة مرت بها بلادنا .

أما الناحية الاقتصادية فان منهج الحزب الوطني الديمقراطي يعالجها على الشكل الآتي :

يعتبر الحزب الوطني الديمقراطي الفقر الذي يعاني منه أكثرية الشعب العلة التي يجب القضاء عليها لأجل ان تعيش لامة برخاء واطمئنان . وحيث ان أسباب الفقر ترجع الى قلة الانتاج العام وسوء توزيع ثمراته فان الحزب يرى ان لا سبيل لمكافحة الفقر الا بزيادة الانتاج وتحسين توزيع الثروة عن طريق التصميم الاقتصادي وتقليل الفروق الاقتصادية بحيث يؤمن لكل فرد حد أدنى من الدخل يكفي لضمان عيش لا وجود للعوز والقلق فيه وذلك عن طريق : أولاً وضع مخطط علمي شامل يتناول الري والزراعة والصناعة والتجارة والمواصلات وسائر نواحي الانتاج . ثانياً تحرير الاقتصاد من الاستغلال والسيطرة الأجنبية . ثالثاً قيام الدولة بالمشاريع الصناعية التي تتصل بالخدمات العامة والتي يكون انحصارها ذا فائدة للصالح العام ، وتوجيه الادخار الفردي ورأس المال الوطني لانعاش الحركة الاقتصادية والصناعية عن طريق تأسيس شركات مساهمة تشترك فيها الدولة والجمهور . رابعاً : اعادة النظر في ملكية الاراضي الزراعية بتوزيع الاراضي الاميرية الصرفة على الفلاحين في ملكيات صغيرة . وتحديد الملكيات الكبيرة بمقدار معقول، واستملاك

ما يزيد على ذلك لتوزيعه على الفلاحين ، وضم الفلاحين في جمعيات تعاونية . خامساً : الغاء القوانين الزراعيـة الجائرة وتنظيم العمال في نقابات . سادساً تقليل الفروق الاقتصادية الكبيرة بفرض ضرائب مباشرة بنسب تصاعدية على جميع أصناف الدخل والارث والقيام بالخدمات الاجتماعية .

تلك فكرة عن الحزب الوطني الديمقراطي ، هـذا الحزب الذي استطاع ان يكوّن لنفسه قاعدة شعبية فـي العراق ، غير ان الطموح الى الوصول السريع الذي يتجلى من خلال سلوك الحزب ، وحتى من خلال خطاب زعيمه الذي يقول فيه : « ان انتشار مبادىء حزبنا سيمهد لازالة المساوىء التي نشكو منها جميعاً ، وهذا لا يتحقق بطبيعة الحال الا بتقوية حزبنا والحصول على تأييد الجمهور له ، كي يستطيع ان يفوز في الانتخابات النيابية فوزاً يمكنـه من تأليف حكومة اشتراكية ديموقراطية تقوم بتطبق منهجه » .

وهكذا يتبين ان هذه الحركة لم تكن تستهدف تكوين جيل يستطيع ان يحقق أهدافها . بل كان الطابع الوصولي والتجمع الانتخابي بالاضافة الى تأرجح نظرة الحزب العقائدية مدة أربع سنوات ، ونقص تنظيمه ، وطغيان فكرة الزعامة الفردية فيه .. كل ذلك أدى الى تسرب الشيوعيين الى داخل هذا الحزب ، كما ان أزمة الحكـم التي تقوم اليوم في العراق والتي يساهم فيها الحزب الوطني

الديمقراطي كشفت هويته الانتهازيةالوصولية وحددت مستقبله في العراق كظل للحركة الشيوعية ينتصر بانتصارها ويقضى عليه في حالتي فشلها أو القضاء عليها .

الحزب التقدمي الاشتراكي

تأسس الحزب في أول أيار من عام ١٩٤٩ ، وقد اجتذب هذا الحزب منذ نشأته عدداً كبيراً من المثقفين والعمال اللبنانيين ، واصبح له قاعدة شعبية لا بأس بها . كما ان البداية التي بدأها هذا الحزب كانت توحي بشيء كثير من الأمل . فقد كان طابع الفكر والاخلاق والتجرد والاصالة يبرز في كثير من مواقفه ومواقف زعيمه كمال جنبلاط ، حتى ان الشيوعيين شعروا بخطر هذه الحركة فركزوا عليها حملات عنيفة . كما امتازت هذه الحركة منذ بدايتها بتبني فكرة الحياد في الصراع العالمي بين المعسكرين الشرقي والغربي . وهي وان لم تأت بشيء جديد اذ سبقتها حركة البعث الى تبني هذا الشعار ، غير انها كانت تعني بالنسبة الى الوضع السياسي اللبناني ، وبالنسبة للتيارات الفكرية والعقائدية فيه شيئاً هاماً وخطيراً . وقد مرت فترة تعاونت فيه حركة التقدميين الاشتراكيين في لبنان مع حركة البعث عن طريق عقد المؤتمرات القيادية ، كما انها كانت تشعر بالحاجة الى تنظيم مؤتمرات للاحزاب الاشتراكية بين البلاد العربية فدعت في آذار من عام ١٩٥٠ الى عقد

مؤتمر للاحزاب الاشتراكية العربية حضره كل من الحزب الوطني الديمقراطي في العراق والعربي الاشتراكي في سورية والحزب الاشتراكي المصري ، ولم يشترك حزب البعث في هذا المؤتمر لانه كان ينظر الى هذه الحركات نظرة سلبية ويعتبرها حركات اشتراكية غير جدية ولا تحمل من الاشتراكية سوى الاسم وانها أقرب الى التكتلات الشخصية منها الى التكوين الحزبي بمعناه العلمي الحديث . ولم تمض فترة طويلة على الحزب التقدمي الاشتراكي ، حتى أضاع عفوية الانطلاقة التي بدأها وجرأتها ووضوحها ، وبدأ يتعثر وكان السبب الأول في ذلك هو تساهل هذا الحزب في قبول الاعضاء وفتح باب الانتساب على مصراعيه . مما أدى الى اتساع قاعدة الحزب ضمن فترة قصيرة لم تتهيأ خلالها الطليعة الواعية المنظمة المنسجمة التي تستطيع ان توجه وان تقود . ويظهر ذلك من خلال الكلمة التي القاها رئيس هذا الحزب في الذكرى الاولى لتأسيس حزبه اذ يقول : « في مثل هذا اليوم من السنة الماضية ، كان لي الشرف مع سبعة من الرفاق ان أعلن تكوين الحزب ، وبدء العمل في سبيل نشر وتحقيق الفكرة التقدمية الاشتراكية ، واليوم ها هم الالوف من الفلاحين والعمال ينضوون تحت لواء الحزب في كل انحاء لبنان » . ان هذه النشأة السريعة والطابع الطائفي الذي ظهر على هذه الحركة ودخول الاعتبارات

الانتخابية والانتهازية الى صفوف هذه الحركة ... كل ذلك أدى الى تراخي حياة هذا الحزب وهبوطها عن المستوى الذي بدأت فيه . فتحولت الى تجمع يرتبط بشخصية زعيم هذه الحركة السيد كمال جنبلاط ، الذي كان لاساوبه المركزي الشديد في العمل الحزبي دوره أيضاً في زرع الفوضى في صفوف الحزب . يضاف الى ذلك التناقضات الكثيرة في مواقفه وتصرفاته سواء بالنسبة الى القضايا الدولية أو الى القضية العربية أو الى الحكم في لبنان . مما أدى الى انفصال مجموعة كبيرة من المثقفين الذين كان الحزب يعتز بهم ،وأصدروا نشرة أوضحوا فيهاسبب انسحابهم(١)

أما مبادىء هذه الحركة فقد انطبعت بالطابع الذي يغلب على ثقافة زعيمها . فقد جمعت ثقافة كمال جنبلاط صوفية الشرق الى علمانية الغرب،فقد تقمصصاحبها شخصية المصلح الاجتماعي صاحب الرسالة الانسانية الروحية الذي تتجمع فيه شخصية غاندي الى جانب شخصية روبيرت أوين . ويظهر من خلال النشرات والخطب والمقالات التي كتبت في صحيفة (الانباء) الناطقة بلسان هذا الحزب ان الطابع السلبي يغلب على هذه الحركة فهي أقرب الى رد الفعل على الاوضاع الفاسدةفي لبنان منها الى الموقفالايجابي. وكلما حاولنا ان نتلمس حلاً ايجابياً لمشاكل المجتمع العربي

---

١ لماذا تركنا الحزب التقدمي الاشتراكي بيروت ، (٢٤ تشرين الاول ١٩٥٦) .

في لبنان رأينا هذه الحركة تنطلق في أجواء خيالية بعيدة عن الواقع ، لذلك كان الطابع النظري الكلامي هو المسيطر عليها وكانت عاجزة عن خلق مشكلة عمالية أو طرح شعارات عملية تربط الفلاحين بالفكرة الاشتراكية . ففي عيد تأسيس الحزب التقدمي الاشتراكي الاول عام ١٩٥٠ يحدد كمال جنبلاط الهدف الذي تسعى اليه حركته فيقول : « ان المثال الرفيع الذي نصبو اليه هو تحقيق انسانية أفراد الاسرة البشرية . وتوحيد صفوفهم واحلال روح الاخاء والمحبة في نفوسهم . لذلك أعلنا الحرب على الخوف والعوز والجهل والاحقاد القومية والطائفية ، على جميع العوامل التي تفرقنا . » ان هذا الكلام ينطوي بلا شك على كثير من العاطفة الانسانية غير انه شعور يرافق سامعه بأن صاحبه يعيش في السحاب بين السماء والارض ، ويملك روح شاعر أكثر من شخصية زعيم سياسي . وهذا الانطباع يتأكد لنا من خلال ما ورد في هذا الخطاب أيضاً من قوله : «علينا ان نعمل كمن يعمل بلا أجر ولا عزاء ولا أمل ، لا في هذه الدنيا ولا في غيبة وراء هذه الدنيا ، وان نتحرر من فكرة العقاب والثواب ، فمن يعمل بمثل هذه الروح لا يكون للالم ولا للضعف الى نفسه سبيل ، ولا للغضب ولا للغرور ولا للحقد ولا لهرم الحياة ذاتها . ويكون حراً طليقاً سيداً لا عبودية في ذاته الصميمية . » وهذا الطابع الصوفي « الرواقي » يتجلى أكثر في عبارته التي تتنو

هذه العبارة حيث يقول : « الطهر - طهارة الجسد ، وصفاء الفكر ونقاوة الروح ، هو الوسيلة والسبيل الى التعرف على حقيقتنا ، والاصغاء الى صوت الاعماق فينا ، صوت الحياة ونداء البطولة الخالقة . » كما ان هذه الحركة تفتقر من ناحية الفكرة الى نقطة الانطلاق ، فجنبلاط يقول : « نحن نعمل ضمن الوطنية الصحيحة ، ضمن اللبنانية الاستقلالية الصحيحة دون التعرض منا لصفات قومية لا يعرف أكثر قائليها ماذا يريدون » وهكذا تنكمش حركة التقدميين الاشتراكيين فتعطي لنفسها طابعاً اقليمياً يناقض الطابع الثوري الذي حاولت ان تتمسك به هذه الحركة منذ بدايتها ، لأن هذه القوقعة الاقليمية لم تكن نابعة من نظرة تحليلية للمفاهيم القومية ، بل كانت استجابة لروح الانكماش التي عززتها العوامل الطائفية والاتجاهات الاجنبية التي جعلت من الاقليمية في لبنان تعبيراً عن مركب الخوف من العروبة ومن أي ارتباط جدي بالاقطار المجاورة له . لذلك اختار الحزب التقدمي الاشتراكي الطريق السهل بل اعتبر روح الانكماش هي الاصل والشيء الطبيعي الأمر الذي أدى الى تناقضات كثيرة في موقف هذا الحزب من القضية العربية خلال نمو هذه الحركة التي رأت نفسها مضطرة الى الخروج من اقليميتها اذا أرادت لنفسها ان تعيش زمناً طويلاً وان يكون لها تأثير تاريخي في حياة لبنان وان لا تكون عابرة وقصيرة العمر . كما اننا نلاحظ

نوعاً من البساطة بل والسذاجة في معالجة المشاكل الاجتماعية وفجوات واسعة بين النظر والتطبيق العملي ينكشف ذلك من قول زعيم هذا الحزب: لم نسع لاستثمار الجماهير في اثارة الاحقاد، بل حاربنا الحقد لنحل محله روح الحب والاخاء والتعاون، فلم نغرس في ذهن العامل فكرة العداء لرب العمل، ولا في صدر الفقير عاطفة الحقد على الغني . بل اعتبرنا جميع أفراد الاسرة البشرية وحدة تتعاون أجزاؤها تحت ناموس الانسجام . وهكذا جمعنا في حزب واحد بين الغني والفقير بين رب العمل والعامل . بين الملاك والفلاح . ورسمنا خطط التعاون بينهم لما فيه خيرهم وخير الانسانية » . كأن هذا الجمع بين التناقضات يكفي لحلها وازالتها .

أما التحديد الموجز لاهداف الحزب التقدمي الاشتراكي فقد ورد في آخر هذا الخطاب حيث يقول : « لن يطمئن لنا جنان ، ولن تتوقف لنا حركة ، ولن يهدأ نضالنا حتى بعد ان ننتصر بأمانينا وهي أماني القوى الشعبية الساحقة المناضلة ، ولن يتوقف لنا صراع لأن الصراع من متطلبات الحرية والحياة ، وسيتحقق على يدنا حلم البشرية الذهبي الذي رافق تطور الانسان منذ مئات الألوف من السنين : أولاً ، الديمقراطية الاقتصادية : الخبز والعمل والعلم للجميع . ثانياً . الديمقراطية الاجتماعية : لا ميزة لامرىء على امرىء الا ميزة المعرفة والنشاط ولا حق بلا واجب يقابله . ثالثاً ، الديمقراطية السياسية : لا دكتاتورية ولا فوضى

بل ديمقراطية شعبية .

تلك هي الصورة التي يعكسها كمال جنبلاط عن فكرته التي تقوم على أساس اشتراكي تعاوني يمتزج بطابع الخيال والصوفية والبعد عن الواقعية والروح العملية الجدية .

* * *

تلك فكرة عامة عن تطور الحركة الاشتراكية في الوطن العربي أغفلت منها الحزب الاشتراكي المصري لانه لم يكن اشتراكياً في منهجه واكتفى بتبني بعض الشعارات الاشتراكية ، كما انه كان حزباً فردياً فاقداً لهوية الحزب الجدية .. وكذلك الحزب الوطني الاشتراكي في الاردن لانه في مبادئه كان ظلاً لحركة البعث في الاردن ، وفي تنظيمه كان حزباً يقوم على المصالح الانتخابية والوصول الى الحكم .

١٩٥٩